

« في القانون الدولي »

« إمریک دی قاتل »

(١٧١٤ - ١٧٦٧)

مقدم

« مولده ونشأته »

ولد في الخامس والعشرين من شهر إبريل من سنة ١٧١٤ في « كوفت »

بمقاطعة « نيوشاتل » بسويسرا

وكان والده « ديفيد دي قاتل » David d. Vattel من قساوسة البروتستنت،

فورث عنه نزعة إلى الفلسفة . ولقد فكر منذ نشأته في أن يقف حياته على

دراسة « اللاهوت » ولكنه دخل جامعة « بال » بعد موت أبيه في سنة ١٧٣٠

وفي سنة ١٧٣٣ انتقل إلى « جينيف » وقد تعمق في الفلسفة والعلوم الأدبية تديقا

كبيرا . ولما كان « قاتل » من زعایا ملك بروسيا ويميل بطبعه إلى السياسة، فكر

في أن يذهب إلى برلين ليجت عن وظيفة في الدوائر الدبلوماسية ، فهبطها

سنة ١٧٤١ ولكن لم تتحقق أمنيته !! وكانت حالته المالية لا تسمح له بأن يطيل

الإقامة في برلين ولذا ترك مقاصدا « درسدن » في سنة ١٧٤٣ وهو متفائل خيرا ! إلا

أنه اضطر إلى السفر إلى « نيوشاتل » لتضاء بعض مصالحه الخاصة وعاد بعد أن

انتهى منها في سنة ١٧٤٦ .

« فشله في هيامة »

وبقي عاما كاملا يتمتع بلذة المطالعة ، ومعاشرة الأصدقاء، وأخذ يعمل النفس

بنواله يد شابة هي الديموازيل « مرفييو » وكان يحبها حبا مفرطا منذ سنة ١٧٤٢

إلا أنه لم « يتدر » له أن يقترون بها !!!

« تعيينه سفيرا في برن »

وبسم له الحظ فعين سفيرا في برن Berne سنة ١٧٤٩ ولكنه قضى شطرا كبيرا

من السنة بين أفراد عائلته في « نيوشاتل » إذ لم يكن قد تبيأ له محلا يقيم فيه

اقامة دائمة ولما كانت اعماله الدبلوماسية لا تستغرق جل وقته وجد متسعاً للدرس والمطالعة .

« ميله للاجتماع والمعاشرة »

وكان بطبيعته يميل الى حياة الاليناس والاجتماع، وصرف عدة سنوات في سويسرا ينعم بحياة هنيئة ، يقوم بواجبه الالين ، فاذا أنتهى منه ، قصد « قاعة الاستقبال » التى كان يستعيز بها عن كل وسائل الاليناس واللهو ! ! وقد كتبت المدموازيل « بروفوست » في رسالة لصديقتها بلدى زويلن تقول : إنه يقيم في « نيوشاتل » منفقاً وقته في الدرس والمطالعة ، والاجتماع بالسيدات . انى اراه بين حين وآخر . حقيقة انه في غاية الادب ، اما حديثه فشئى « ممتع » !!!

« كتابه الخالد »

وبعد ان ظهر كتابه الخالد « Le Droit de Gens » في القانون الدولى في سنة ١٧٥٨ ، اثناء حرب « السنين السبع » ، استدعاه ملك سكسونيا « أوغسطس الثالث » Augustus III وعينه مستشاراً خاصاً للوزارة ، فتخصص لهذا العمل الخطير تخصيصاً تاماً ، ولكنه اختلس برهات قليلة كتب فيها آخر رسائله .

Questions de droit Naturel ou Observations sur le traité de la nature par M. Wolff.

.. وقد نشرت في سنة ١٧٦٣

« موته »

ولكنه لم يعمر طويلاً فقد ناء تحت اعباء هموم عمله الخطير ومسؤولياته وكان يبذل مجهوداً طائلاً . وبعد ان قضى خريف سنة ١٧٦٦ في « درسدن » اضطر ان يعود ثانية الى « نيوشاتل » فقهى نخبه في ريعان شبابه ، في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر من سنة ١٧٦٧ بداء الاستسقاء !!!

« ارملة وطفله »

وترك ارملة شابة هي « مايان دى شسن » ، من عائلة فرنسية شريفة كانت تقيم في سكسونيا ، تزوج بها « قاتل » في سنة ١٧٦٤ ورزق منها طفلاً واحداً هو أودلف موريس قاتل في سنة ١٧٦٥ . ولقد كان لموت هذا السيافى العظيم

أثراً عميقاً في نفوس اصدقائه العديدين من رجال السياسة والادب، وكتبت عنه المدمواريل « بروفست » : « انه رجل حاد الذكاء ، يمتاز بسعة الاطلاع ، وقوة التمييز ، ورقة القلب مع طيبة في النفس . حقيقة كُن انيساً ، كريم الاخلاق . عاش عيشة نافعة ، مشعرة ، وان كانت قصيرة ، بين لذة الاخلام والتأملات ونعمة الانساس بالاصدقاء والمحبين » !!!

« أثره الخالدة »

ما كُن يحلم « قاتل » وقد طبع من كتابه « ١٢٠٠ » نسخة !!! ان تصبح لكتاباته الخالدة كل هذا السحر ، وان يفتتن بها رجال الاجتماع ، والساسة ، والقضاء ، والمحاماة كل هذا الافتتان !!؟

كتب يوماً ما ، وقد كان كتابه « تحت الطبع » في رسالة ل احد اصدقائه في ٢٦ مايو سنة ١٧٥٧ ، وهي محفوظة حتى اليوم في مكتبته « نيوشاتل » بسويسرا ، كلمته المتواضعة « سيطبع كتابي أكثر من مرة » !!!

وقد تحقق كل ما كان يرجوه ، بل أكثر مما كان « يحلم به » !!!

فاعيد طبع الكتاب في « ليدن » ، وظهرت الطبعة الثالثة ، بعد موته ، في سنة ١٧٧٣ ، مشوهة ، عليها مسحة الاهمال ، وتدل دلالة واضحة على انها طبعت في شيء كثير من العجالة ، فاستاء معارفه وذكروا انها « لاتصلح الى اللبدال » !!! فقام دوماس « Domas » السويسري وطبع الكتاب طبعة متقنة .

ثم ظهرت بعد ذلك مباشرة ، في سنة ١٧٧٧ ، طبعتان ، احدهما طبعت في « بال » والاخرى في « نيوشاتل » وبها ترجمة حياته !

« مكانته في إنجلترا »

كان يعجب « قاتل » بإنجلترا ايما اعجاب ، ويجد انه لا ينتقصها من المميزات التي تؤدي الى نجاح الدولة وعظمتها شيء ، ومدح على الاخص دستورها وذكر انها لا أهميتها التجارية تقبض في يدها على التوازن الدولي في أوربا وانها تقوم بواجبها الانساني بشرف ، فلا غرابة اذا أعجب به الانجليز الاعجاب كله ، وكان من دلائل اعجابهم به ، وتقديرهم له ، ان ترجموا كتابه ثلاث ترجمات ، ظهرت

الأولى في سنة ١٧٦٠ ، والثانية في سنة ١٧٩٣ والثالثة في سنة ١٧٩٧ .

والواقع ، انه ليس بين علماء القانون الدولي ، وحتى بين الأنجليز انفسهم ، من يقتبس عنه في إنجلترا بمثل هذه الوفرة ، ويستشهد به بمثل هذه الكثرة كقاتل .
ومعها كانت آراء أوبنهايم ، ولورنس ، روستليك ، رفوش ، وهاید وغيرهم
وأمثال ما كنتوش ووازد وماننج وبارور وهال فيدوف في فضله ووزارة عدله ، وتضلعه
من العلم ، فانه لم يتم بين مؤلفي القانون الدولي من الأنجليز ، من بداية القرن التاسع
عشر الى يومنا الحاضر ، من يشك ادنى شك في قيمة هذا الأثر المالد !!!
بل ان القضاة الأنجليز يظهرون دائماً استعذابهم السلي للرجوع الى احكامه
في قضاياهم الدولية العويصة كما أنه إمام الحامين الأنجليز يرجعون اليه ويستشهدون
به ويسترشدون بأرائه السديدة الحكيمة !!!

« اثره في الولايات المتحدة »

ولم يكن تأثيره في الولايات المتحدة باقل من تأثيره في إنجلترا ، فان نفوذه
ان لم يكن في أمريكا اعظم منه في إنجلترا فانه على اقل معادل له .
والحقيقة ان « قاتل » لم يكن معروفاً في الولايات المتحدة بين سنة ١٧٥٨ -
وسنة ١٧٧٦ ! وفي سنة ١٧٧٣ ادخل القانون الدولي لأول مرة في « كلية كننجرس »
(جامعة كولمبيا اليوم) غير انه لم يدرس فيها . ولكن لم تأت سنة ١٧٨٠ حتى
اصبحت كتابات « قاتل » تدرس في كل جامعات أمريكا . والواقع ، ان الأمريكيين
أحبوا « قاتل » واحبوا منه على الخصوص ، دفاعه عن الحرية السياسية ، واعجبهم
منه رأيه في ان واجب الدولة الرئيسي ومطمحها الاسمى يجب ان يكون السهر على
اسعاد رعاياها وزيادة رفاهيتهم .

والأمريكيون يقدرّون « قاتل » ويرون فيه مرشداً حكماً ودوناً كبيراً في حل
المعضلات السياسية .

ولما قامت مشكلة الملاحة في نهر المسيسيبي بين أمريكا واسبانيا ، وقد
كانت تملك الجزء الاعلى منه ، استعانت الولايات المتحدة « بقاتل » وقد كان
من اكبر انصار حرية الملاحة البريئة وكانت النتيجة أخيراً ان أمضيت معاهدة
« سان لورنزو » في سنة ١٧٩٥ ، وفيها سمحت اسبانيا بحرية الملاحة بين « فلوريدا »

و«لويزيانا» للامريكيين !!!

وفي سنة ١٧٩٧ وقف النائب «سوانويك» في مجلس النواب الاميركي ،
وقد كان نائبا عن «بنسلفانيا» ، يدافع عن القانون الدولي قائلا : اذا كان «قاتل»
لا يوافقنا على رأينا فلنرجع الى «دى مارتنس» ، وكلاهما كاتلمون ، من أعظم رجال
القانون الدولي !!!

ويذكرون دليلا على مكانته بين رجال القانون ، ان محاميا كبيرا هو «باتريك
هثري» قبل ان يتراجع في «رشيوند» سنة ١٧٩٠ ، في إحدى محاكم الولايات
المتحدة ، ارسل حفيده ليستحضر له ما يؤيد به دعواه ويقنع به القاضي من وثائق
«قاتل» !!! وقد كلفه ذلك ان يمتطي حفيده جوادا ويقطع به اكثر من ٦٠
ميلا !!!

«أثره في فرنسا»

أما فلاسفة فرنسا فما كانوا يذكرون القانون الدولي في العهد الاول الا
للسخرية والامتياز ، ويشبهه «فولتير» بصورة اجدادنا الذين نحترمهم ، مع اننا لم
نرهم ، ويقول — :

« يظهر ان تلك الرسائل في القانون الدولي التي لم تساعد في أية معاهدة
من معاهدات السلام ، ولا في أى إعلان للحرب ، ولا في تثبيت أى حق لاي
إنسان ، ان هي إلا مجرد عزاء للناس عن الشرور والويلات التي تجرها القوة في
اذيالها ليس هناك ما يجعل العقل خافلا مضطربا كقراءة هذه الكتب
التي كتبها «غروتوس و بلفندورف» وغيرها ممن كتبوا في القانون الدولي .
ويضيف «ديدرو» « ان كان القانون الدولي لا أثر له عندما تشتعل نيران
الحرب »

ولم تكن طعنات «قاتل» القاتلة وهجاة العنيفة على الكنيسة الكاثوليكية
كافية لان يكسب بها قلوب هؤلاء الفلاسفة وعظمهم . فقد كان الحادهم لا يتفق
بأية حال من الاحوال مع بروتستنتيته أو مع أى مذهب آخر . وربما كان «شالوتيه»
هو الرجل الوحيد الذي قرأ كتابات قاتل في كل فرنسا في ذلك العصر .

اما « فولتير » فقد مر عليها مراراً من غير اعتناء . فلم يكن هناك ثمة توافق في الامزجه . وبعد ان ظهر كتاب « فاتل » بخمس سنوات ، كتب « فولتير » في ٢٨ فبراير سنة ١٧٦٣ الى شالوتيه يقول : « انك ستغريني على قراءته ثانية »
« مكانة « فاتل » في المانيا »

اما نفوذ فاتل في المانيا فنموذ صادق عظيم . ولكن كتابات « باونتشل » ومارتنس وهفتر» قد اثرت في العقل الالمانى تأثيراً اعظم من تأثير « فاتل » . وقد اقتبس باونتشل عن « فاتل » بعض آرائه في حصانة السفراء ، وتسليم الجناة .
النارين الى حكمه أخرى ، وقانون الحرب والحياد .
« مكانته في ايطاليا »

إن كتابات « فاتل » ولو لم تترجم الى الإيطالية الاخرى الى سنة ١٨٢٥ فإن له مكانة سامية في قلوب الايطاليين
« نفوذه في اسبانيا » .

وقد ترجمت كتاباته الى الاسبانية في سنة ١٨٢٢ وفي سنة ١٨٣٦ ، وله حظوة كبرى عند الاسبانين لم يحظ بها غيره من المؤلفين .
وقد امتد نفوذه حتى الى الارض السفلى ، والدينارك والسويد والنرويج ،
وروسيا ...

« فاتل غير مبدع ولا مبتكر »

ولا يرجع نفوذ « فاتل » ، ولا ترجع شهرته العظيمة الى كونه مبدعاً مبتكراً .
بقدر ما يرجع الى ما يسود اقواله من السداد وماتانة الحجة . نعم لا يعود سحره الى جدة أحكامه بقدر ما يرجع الى دقة شريحه وتحليله العرف والتقاليد والعادات .
وفوق ذلك ، تعتبر كتاباته اثرًا من آثار الوسط الذي عاش فيه . وقد هاله ما رآه من هول « حروب السنين السبع » التي امتازت بما وقع فيها من ضروب القسوة المتناهية والتخريب ، كما امتاز عصره بما كان يجري عليه رجال السياسة من اساليب الخداع وضروب الفس والوقية حتى ضج العالم وتناق الى السلام ، فقام المفكرون يحاولون اخراج العلاقات الدولية من هذه الفوضى التي كانت تسيطر عليها ، ونادوا بان العلاقات الدولية يجب ان يحكمها قانون أساسه العرف والقانون الطبيعي :

وظهر أولاً آيالا (١٥٤٨-١٥٨٤) وسنفرد له فصلاً خاصاً، وسوريز (١٥٤٨-١٦١٧) الذي حلل نظرية القانون الدولي تحليلاً عميقاً فلسفياً وفصل بين القانون الطبيعي Law of nature وقانون الأمم Jus gentium الذي يستمد قوته من ارادة الدول جميعاً، أو ارادة أكثريةها - ونادى بضرورة وضع قانون ترضخ له الدول جميعاً. ثم جاء بعده « جنتيليس » ١٥٥٢ - ١٦٠٨ وكان القانون الدولي قد تقدم شوطاً بعيداً، وهو استاذ للقانون المدني بجامعة « اكينورد » فمثل مرة في قضية تتعلق بأحد السفراء، وهذا ما حدا به الى كتابة رسالته الاولى التي أوضح فيها كل ما يتعلق بالرساليات الدبلوماسية، وبحث حصانة السفراء، وعلاقاتهم بالدول التي بعثتهم، وبالدول التي أرسلوا اليها، وكتب في الحرب، وأنواعه، وأسبابه العادلة، ونتائجها، وعن المعاهدات وقوتها، وعن الممالك المحايدة، وقد كن في كل كتاباته عملياً بحثاً، طبق نظريات القانون الدولي على مشاكل العصر الذي عاش فيه. ولا يذكر « جنتيليس » الا ويدكر معه « الحياد » Neutrality

ولكن « فاتل » اعتمد في كل كتاباته على كتابات عالم الماني كبير يسمى « وولف » (١٦٧٩ - ١٧٥٤) وكان استاذاً بجامعة « هال » وبحث القانون الدولي بحثاً معقداً جافاً عويصاً. فقام فاتل يتفهمه ويهضمه ويقدمه خذاء سائفاً سهلاً قريب الفائدة بعيداً عن المهوشات وسناني بعد هذه المقدمة البسيطة عن « حياة » « فاتل » على « آرائه ونظرياته » وتقارن بينه وبين غيره من رجال القانون الدولي

كامل ص. ويلي م. ميحه

جامعة بيروت

